

أحب فرنسيو القرن التاسع عشر ، في معظمهم ، أن يعملوا من أنفسهم قوماً أتقياء صالحين . فتنتدال وأناطول فرانس نفسه ، وأخيراً بول فاليري ، كل هؤلاء كانوا يشيرون في نفوسهم الى وجود الحيوان الصالح الورع . ذلك لأن فولتير ، عظيم اوروبا في القرن الاسبق ، كان في

# شيطان بين عملاقين

بقلم جورج جرداق

[ مهداة الى عبدالله القصيمي ]

في خلق هذه الحرافات ويسببه ، وشذوذنا هذا يقضي بشقائنا ويسببه . وهذه الحلقة المفرغة التي يدور فيها معظم الناس وأكثر المفكرين ، لم يقبل فولتير بان يدخلها ويطبق دائرتها

على نفسه ، مما جعله بعيداً عن الناس ولا سيما الصالحين الورعين . ومن غرائب الطبع الانساني ، ان الملحد الذي يهاجم المعتقدات السائدة ، ويشتم المعتقدين ، ويجرحهم ، هو اخف وطأة عليهم من ذلك الذي يصغي ، ويسخر ويكثر من السخر . وعلة ذلك ان بعض صور النعمة على المصير وعلى الحياة وحدودها ، قد تمالكنا وترضينا وتعلمنا ، اذ تكشف لنا عن عاطفة غالية ، وهي اننا احق بمصير أسمي واجمل !

لذلك كله كان اسلوب فولتير في اعادة الانسان الى حدوده ، يبدو لخصامه كأنه تحقير للطبيعة الانسانية ذاتها . اما فولتير ، فقد عرف هو أيضاً خصمه ، اول خصومه . اكتشف فولتير بنظرته العبقرية ، قوة باسكال ، كما كان قد اكتشف شكسبير . وتحدث عنه ، وهاجمه ، وحاول تقويض آرائه ، دون ان يسيء الى شخصيته الفذة ، وإن لم يستطع ان يتخلى عن سخريته . قال فولتير : « منذ زمن ، وأنا ارغب في محاربة هذا العملاق ! »

واشدت الواقعة بين فولتير وأنصار باسكال . وجعل فولتير يهدم في باسكال الاساس نفسه الذي بنى عليه آراءه : يهدم فيه ذلك الانطواء على النفس بحجة التأمل في الذات ، ويهدم في تلاميذه وأنصاره تلك الرغبة في التأمل الذاتي التي اصبحت فيهم شيئاً من التعمته والهوس ، يهدم اولئك الذين يخالون انهم يتسعون ويعظمون بهذا الرجوع الدائم الى ذاتهم دون المجتمع ودون الكون المحسوس ، ويتظاهرون بانهم يحملون بذلك عبئاً لتحري الحقيقة ، وهم في الواقع كسالى تافهون . يقول فولتير لهؤلاء :

« واقولها ثانية ايضاً : ان التفكير بالذات مع التجرد من الاشياء الطبيعية ، انما هو تفكير بلا شيء ، بلا شيء على الاطلاق . وليحذروا هذا النوع من التفكير . »

وكان فولتير يقضي ، سلفاً ، على هذا التزمم التافه

طليعة اولئك الذين لم يرغبوا مرة في ان يكونوا حيوانات صالحة ورعة ! فكان ، لذلك ، يتمتع « بسمعة غير طيبة . » وجميع الذين اهتموا الرصانة واتخذوها عملاً ، قرروا ان فولتير لم يكن رصيناً . وجميع الذين « قرروا » ان يكونوا فاضلين ، وان يكونوا من ملائكة الاب الساهوي على الارض ، مقتنوا الشيطان الرجيم الذي هو فولتير ، ولعنوا ابتسامته الساخرة الماكرة ! واتفق الادباء الصالحون الورعون ، على ان فولتير ، هذا الخضم المنيد للسحبة وللاديان جميعاً ، الذي حطم اللاهوتية وما اليها ، وسخر بها مصدرها وغاية وقيمة ، انما هو رجل تنقصه القيمة ، ويموزه الوفاق ، او بمباراة اكثر وضوحاً : تنقصه وجهة الصالحين الورعين !

يرى البعض ان الانسان يجب ، ابدأ ، ان يعجب وان يعجب . وان الناس يرغبون في ان يكونوا : بالنسبة لسائر الكائنات ، موضوعاً عظيماً يثير الدهشة والاعجاب . وان هذه الاساطير المألوفة بالخوارق والاسرار التي تحدث الديانات بها الناس ، انما صنعت لكي تثير اندهاش الانسان بنفسه واعجاب به مصيره !

لهؤلاء يقول فولتير : « ان الاحجية لم تكن ، ابدأ ، شرحاً وتمليلاً » ...

اما هم ، المعتقدين بأن لنا ملء الحق في اللجوء الى الخوارق والتهاويل ، فقد رأوا في فولتير صورة عن إبليس ! ورأوا أن ابتسامته الماكرة الساخرة ، انما هي خيانة لأماننا الانسانية ، وانما ليست اكثر من ابتسامة بائع غشاش . ثم ينعون على فولتير انه يفقد الحنان العميق في حياته وآثاره ، وفي زعمهم ان الحنان انما هو مظهر بمقدار ما هو حقيقة في النفس . وقد فات هؤلاء ان حنان القلب في حياة فولتير وآثاره ، انما هو حنان لا يعلن عن نفسه تظاهراً وتزويراً . فنبشحة ، تليذ فولتير ، يجزم بضرورة الكتمان - وهو ضد الاعلان - حتى في مواقف البطولة العظمى . ومثل هذا الجزم بضرورة الكتمان نجده في آثار فولتير جميعاً ، وهو القائل : « نعلم أنك تتألم ، ولكن لا تتشك . ان اشد الناس عجباً وتشكياً ، ليسوا اولئك الذين يتألمون اكثر من سواهم ... »

ان قوة الفكر والروح هي في ان يجرو المرء على قدر العالم كما هو . وتلك هي قوة فولتير ، وهي الاكثر ندوراً بين القوى . اننا نعيش خرافات وأوهاماً . ونزوي لانفسنا ، عن انفسنا ، حكايات مزيفة لا تنتهي . والطريف اننا سرعان ما نصبح ضحايا هذه الخرافات التي اخترعناها . فان أوهامنا وخرافاتنا هذه ، التي أعددناها لكي نخفي عن أعيننا شقائنا ، لا تلبث ان توسع طاقة هذا الشقاء . فشقاؤنا يقضي بشذوذنا

ان يفهموها : أن يفلح « عاقل » أو قدس او نفس شقية في الارتقاء على اقدام الرب حجة لتقرير الوجود وتبريره . بل ان جميع الناس وجميع الكائنات يجب ان تأخذ طريقها الى البقاء . يقول باسكال : « اذا كان هنالك من خالق ، فيجب الألتحبالا ة ، دون المخلوقات . » فيجب فولتير : « يجب أن نحب المخلوقات جميعاً ، ونحبها بحنان وعمق » .

اما اذا سئنا تفسيراً لكلمة فولتير هذه ، فلا بد من ان يكون كما يلي :

اننا ، نحن البشر ، لسنا الا العلاقات التي نرعاها ونصونها مع الاشياء ومع الكائنات جميعاً . ومن ثم لا نكون احياء الا بمقدار ما تكون هذه العلاقات كثيرة وعميقة . ودأب فولتير يعمل بحيوية ونشاط عجيبيين كأنه الشيطان .

الثقيل الذي يسود اليوم كثيراً من الناس ، والذي يشاء ان يحجم القيم في هذا الصنف الهارب الكسول من البشر السذبن يضعون في نفوسهم بحثاً عن الحقيقة كما يزعمون ، ونتفككه ! ولكي يحدد باسكال صفة الطبيعة البشرية ، قال :

« حين أرى عماية الانسان وتماسته ، وهذه المتناقضات الغريبة التي تنكشف عنها طبيعته ، وأنظر الى العالم فأجده أحرص لا يفصح ، والى الانسان فاذا هو لا نور يهديه ، متروك لنفسه وكأنه تائه في هذه الزاوية من زوايا الكون لا يعلم من وضعه فيها ولا ما أتى من أجله ، ولا يدرك ما مصيره بعد الموت ، حين أرى كل ذلك ، أدخل في فزع هائل ، كذلك الرجل الذي يحمل نائماً الى جزيرة مقفرة مخيفة ثم يستيقظ دون ان يعرف أين هو ، ودون ان يدرك أية وسيلة للخروج من حيث هو . وإذ ذاك يدهشني ألا يبلغ المرء في ظلمات اليأس من مثل هذه الحال التعمسة ! »

فيجب فولتير ببساطة رائعة :

« أما من جيتي أنا ، فحين أنظر الى باريس او لندن ، فاني لا ارى علة لألج في هذا اليأس الذي يتحدث عنه السيد باسكال . انما ارى مدينة لا تشبه جزيرة مقفرة في شيء ، بل آهلة واسعة النعمة ، متحضرة ، يسمد فيها الناس بمقدار ما تنسع الطاقة الانبانية للسعادة . ومن يكون ذاك الرجل العاقل الذي يملأ قلبه اليأس لانه لا يعرف طبيعة أفكاره ، او لانه لا يعرف بعض أسرار المادة ؟ أفليس عليه ايضاً ان ييأس لانه لا يملك اربعة ارجل وجناحين ؟ لماذا نكره كياننا ؟ إن وجودنا ليس باثماً بمقدار ما يريدون أن يوهومونا ... »

ويتابع فولتير هذا الفيض من القول الرائع ، المؤمن بالانسان كما هو ، حتى ليتساءل المرء ، لدى اي من الفريقين نجد تحقير الانسان ، ألدى فولتير القائل بجمال الحياة وجمال الحضارة وجمال العمل في نطاق الوجود بوصفه وجوداً وكفى ، أم لدى أخصامه ومتهميه الذين يتنادون للبكاء على وجود الانسان مصدرأ وغاية ومصيراً ؟!

لدى اي من الفريقين نجد تحقير الانسان ، ألدى فولتير المتجاسر على قدر الانسان بما هو كائن عليه ، أم لدى أخصامه ومتهميه الذين يفزعون من الوجود الى ذاتهم بحجة البحث عن الحقيقة ، ثم لا يخرجون منها الا بلذة واحدة ، هي : الاعلان عن خيبة الانسان في وجوده وعن ضآلة شأنه ؟

« يجب ان يعيش الاس جميعاً ! »

يقول فولتير هذه الكلمة ببساطة وحرارة لباسكال ، العملاق الذي ينفر من البشر والوجود . وفي مثل هذه الكلمات البسيطة تبدو انسانية فولتير . ثم هو اذا بحث في كيفية الوصول الى تحقيق هذه الرغبة الشريفة ، بداله ان المشكلة اجتماعية لا فردية . إن مشكلة الانسان ليست كما يريد البعض

## دارالمهادف

تقدم

### مجموعتة نوانع الفكر العربى

- ذخيرة حديثة ، فيها تحية العصر المعاصر للمصور المأخوذة وهديته إلب المصور المتقبلان .
- نزع النوانع من كتاب الدرب وشرايهم وفلاسفهم في جميع العصور بأفلام المختصين وذوى الخبرة في جميع الأقطار .
- طريقة علمية حديثة تناول دراسة عصر المترجم له ، ثم حياة وأثره في عصره ، ثم عرض لأشعاره ومذاهبه وتذليل ذلك كله بنافذ مختارة من أشعاره ، مبنوية بحسب أغراضه ومذاهبه .
- مجموعة يستفيد منها كل طالب وشادب في استيعاب جوانب الأدب العربى بطريقة مشوقة رصينة

**عصرنا حتى الأوت :**

١- ابنت رشيد	٧- اخوات الصفا
٢- الجساحف	٨- بدع الزمان الخفاق
٣- الشيخ نجيب الحداد	٩- بشارت ببرد
٤- محمود سائى البارودى	١٠- ابوالفرح الاصمياى
٥- ابنت زبيدون	١١- العنبرودف
٦- الشيخ تاسيف اليازجى	١٢- ابنت الرومى

يشتم الكتاب ١٢٥ فترشا

من جميع الكليات الشريفة

دار المعارف ببيروت

٢٦٧٠

لم يكن فولتير بلهجته ، وصوته ، وأسلوبه في معالجة الامور ، رصيناً عاقلاً في نظر زمانه ، والرصانة والعقل في عرفهم يعنيان الخشوع في معبد الماضي والانحناء لخير اربابه ! وما كان الشيطان ليخضع او ينحني !

وظل يعمل بكل قواه ، ويناقش . ويهدم ، ويبني ، كرجل يعيش على الارض ويجب الحياة والاحياء والموجودات جميعاً . ثم إذا هو نظر الى الموت رأى الناس يكتفون من التفكير فيه والاهتمام به ، فرثى لحلمهم ، وأعلن ان التفكير في الموت لا معنى له الا غلبة الموت على الانسان ، وأن أجل نصير للانسان على الموت هو الا يفكر فيه ، وان هزأ به اذا امكن ، قائلاً : « سأموت ، اذا استطعت ، ضاحكاً » .

ظل يعمل كأكثر الرجال لوصفاً بالارض واقلمهم اهتماماً بالسما ، متفائلاً بمصير الانسان ، بمعناً سخريه وتهديماً في كل ما نوظد بناؤه بحكم العادة من اوهام وخرافات والمخرافات تقوم الى جانب الحقيقة . اوهام وخرافات قدّست على حساب الحقيقة الحارة الجميلة ، وعلى حساب قيمة الانسان ، فأقيمت لها معابد فيها اصنام وكهان ومعتقدون كثيرون ، وكان لها عمل تأخيري واضح شد مساعق الانسانية في سيرها التصاعدي .

يأخذون على فولتير شيئاً واحداً : وهو انه لم يكن قديساً ! غير ان قديساً واحداً في هذه الدنيا لم يعمل بعض ما عمله فولتير . ولعل اقل القديسين شأناً هم اكثرهم عملاً ... قال الشيطان فولتير :

« الجنة حيث انا موجود ... »

وكفى الارض جمالاً ان تكون هذه الجنة . وكفى الانسان وجوداً جميلاً ان يكون سيد هذه الجنة .

ويقف في وجه فولتير عملاق آخر من جبابرة الفكر الانساني ، والأصالة الانسانية ، وأعني به ظهيره في بناء قواعد الثورة الفرنسية ، جان جاك روسو ! فان كلا من روسو وفولتير حد للآخر .

لا بد لنا من أن نقض الطرف عن الشتائم الكثيرة التي كان فولتير يوجهها الى روسو ، اذ كان روسو على لسان فولتير « مسخاً » و « يهوداً » و « رجلاً خبيثاً » و « سمدان الفلسفة الذي يقفز على عصا ! » . غير ان هذه الشتائم لا تعني في حقيقتها شيئاً . لأن فيها من عمل المزاج الفني ومن وحي القرية . وفولتير لم يكن ، كروسو ، يتمتد كل ما يقوله . فهو عابث ساخر يتهم بروسو كما يتهم بنفسه . وحين ينتهي عمل المزاج الفني الخالص لدى فولتير ، يتحدث باحترام وتهيب عن روسو ، ويرى انه « بائس كبير ! » غير أن كلمة واحدة تتردد على لسان فولتير مئات المرات ، تدلنا على أسلوبه في التخاض من الحال كما اصطدم بمقبرة روسو الفذة وشخصيته المدهشة ، هذه الكلمة هي ان روسو : « مشعوذ غي . »

وأطلق في وجه الصالحين الورعين ، العاجزين الماربين من بهاء الشمس ، المشككين بقيمة الانسان ، المقنعين عن جمالات الكون وشهوات الحياة بموجب من كسل الجسد وتخنث الفكر وميوعة النفس ، المتهافتين على الاديان وما تستلزمه من جود في الفكر وانهايار في الحس الجملي وفي قوى الانطلاق ، وما تقتضيه من إنكار الجمال الكائن ضمن قوانين العفوية والطبيعية ، المعتقدين بما خلفه الماضي من شروط لمعنى الوجود الانساني ، أطلقت صرخات تلو صرخات تتحرق على جنباتها أجيال من العرف الاعتقادي ، والعرف الاجتماعي ، وبالتالي العرف السياسي !

وأمعن في خصمه باسكال تهديماً ، وفي آراء زمانه ، حتى رأت سلطات ، عصره وهي القابعة في تلك الابنية الفكرية العتيقة التي يقوض فولتير جدرانها وسقوفها ويدكها دكاً ، رأت تلك السلطات من الخير ان تحرق آثاره لو تستطيع ، ولا سيما الرسائل الفلسفية ، والقاموس الفلسفي ، ومحاولة في فهم العادات ، والاقاصيص ، والكثير الكثير من اشعاره واهاجيه !

## سَعْيُ فَيَاضٍ

في كتابه النثري الجديد

# صُورٌ تَحْرُكَةٌ

بعطينا أخصب فكرة

في اروع ديباجة من في القصة القصيرة

والمقال البارع .

يطلب من جميع المكتبات

العربية

ملتزم التوزيع

شركة فرج الله - بيروت

## الشعر العربي في المهجر الامريكى

دراسة ادبية جديدة في موضوع ادبي جديد

وهي الرسالة التي رفعها الاستاذ وديع ديب الى الدائرة العربية في الجامعة الاميركية بيروت من اجل الحصول على درجة ماجستير في الادب العربي فاستحقت ثناء الاساتذة . و اقل ما يقال فيها انها دراسة تجمع بين الطابع العامي الرصين والاسلوب الفني المشرق .

تطلب من المؤلف ، بيروت ، ص.ب ٢١٤١

الثلث ثلاث ليرات لبنانية



مجلة سندباد رابطة تجمع بين قلوب الناشئة في مختلف الأقطار

كان يرددها تخلصاً من كل ما لا يفهمه، وما لا يريد ان يفهمه في روسو  
هذا العابر العجيب ، الغريب عن الدنيا !

كان روسو لا يحلم الا بسمادة البشر ! وكان يتكلم عنها وعنهم بفيض من الخطان والحب العميقين ، كما لو كان يتكلم عن عالم شاهده مرة في حلم أو قاده اليه ارهاط من الشعراء . عالم يحتفظ بها فيه من مظاهر الطبيعة المذراء دوغماً اعتداء على جسد هذه الطبيعة وعلى قلبها . فيما كان فولتير يريد سعادة البشر هو ايضاً ، ولكنه يراها بوصفها ابناً للارض والمجتمع والحضارة . لا شك في ان القلب يتجه بكل نوازه نحو روسو العظيم . غير أن العقل يؤثر فولتير ويتجه بمناد وإصرار اليه .

ان المرء ليجس كم هي فاتنة وجيلة تلك الظلال الرخية الحلوة التي تكشف البيت الريفي الذي نراه ابدأ في آثار روسو . وكم يطيب للقلب ان يحن ابدأ الى هذا العالم الصغير الساحر . ولكن ، ايكتمني الانسان بان يستلم لهذه الفتنة وهذا الخنان ؟ ان هذا العالم الصغير ، عالم روسو ، فأت حبيب ولا شك ، ولكنه ضيق ، وساكته لا يلبث ان ينقلب الى انسان ذي حدود ، معروفة لا تجاز ، وليست تلك هي حدود الانسانية ، بل انها اوسع وأشمل . وانه ان الخير ان يواصل فولتير وامثاله لإفلاق هذا العالم الصغير ساعة يثقون بإمكانية تقديمه وتوسيع حدوده .

ان نظرة روسو الى المجتمع والحضارة ، تطلق الثورات وتحيميا . ولكنها قد تمنطقها ايضاً او توقف انطلاقها . أما فولتير فيطلقها ابدأ حتى لا تهدأ ولا تستسلم . ان حب الحقيقة وتركيبتها ، هو مبدأ كل ثورة تستمر . وهذه الثورة بمعانيها العميقة ، لا تحترم شيئاً الا الحياة وميادينها السلمية . وببطء ، ولكن بقوة ، تبدل الاخلاق والعادات والانظمة والمفاهيم ، وتفتح قلب الانسان وعقله على ما هو أوسع وأبعد وأجل . والثورة كلمة لم يرددها فولتير الا قليلاً جداً . ولكنه اراد نتائجها وسعى اليها وادرك منها اكثر مما ادركه جميع الادباء الذين يرددون لفظتها في كل ما يكتبون . والثورة هي موجز نظرتة الى التاريخ ، والدين ، والاجتماع . وهي التي كانت توقعه بصورة مستمرة على كل ما يهيم الانسان من صغائر الامور وكبائرها . الثورة عند فولتير هي ما كانوا يسمونه « شيطنة فولتير » القائل للانسان السادر في طريق الخرافة ، وفي طريق الشك بكرامته وقيمه : « اذكركم قيميتمك كإنسان ! »

ولما مات الشيطان ، لم يؤمن اخصامه من الحيوانات الصالحة الورعة بان « شيطنته » قد ماتت معه ، وكانوا على حق في ذلك !

مات فولتير وابتنسامته الساخرة على شفتيه ، ولأول مرة يبتسم الموت في تاريخ الانسان .

جورج جرداق